القدس بين رمزية الحياة ومنطق السياسة

ندوة حول كتاب منهاجي: القدس شكل الحضور ودلالات الغياب

نظم مركز القطان للبحث والتطوير التربوي ندوة ثقافية تقييمية بتاريخ 19/ 3/ 2008 حول كتاب «**القدس . . الوطن والروح – خطة مرجعية**» الذي أصدرته الإدارة العامة للمناهج الإنسانية والاجتماعية في مركز المناهج التابع لوزارة التربية والتعليم العالي، لمناسبة «القدس عاصمة الثقافة العربية العام 2009». والكتاب هو خطة مرجعية لعام دراسي واحد، وقد قسم إلى ثلاثة أقسام كل قسم خاص بفئة عمرية وصفية؛ فالقسم الأول للمرحلة الأساسية الأولى، والثاني للمرحلة الأساسية المتوسطة، والثالث للمرحلة الثانوية.

جاءت هذه الندوة منقادة بتوجهين، التوجه التربوي والتوجه الوطني، ويتركز التوجه الأول على تفعيل حوار مجتمعي عام حول سياسات الشأن التربوي ومناهجه وقضاياه، حيث أننا في مركز القطان نعمل على تشجيع جميع الفعاليات المجتمعية وإشراكها لمناقشة العملية التربوية في فلسطين، والمساهمة في تطويرها. ولهذا، تأتي هذه الورشة لتساهم في نقل النقاش والحوار حول المناهج من حيزه الخاص إلى العام، ليساهم المجتمع بكل طاقاته وإمكاناته عبر تدخل الأفراد والمؤسسات بموقعهم وحراكهم، وعبر تقديم رؤيتهم وتطلعاتهم نحو غد أفضل لأبنائنا.

أما التوجه الوطني، فينبع من كون الكتيب يتمحور ويدور حول القدس والتعليم عنها، ولما للقدس من حيز خاص في وجداننا وهويتنا، وما تتعرض له من عملية محو من قبل الاحتلال الاستيطاني الصهيوني. ولهذا، نرى أهمية وجود تعليم عن القدس، يقدمها بما فيها من جغرافيا وتاريخ وبشر؛ بشر بحكاياتهم وذكرياتهم وثقافتهم وأحلامهم، ومكان بعمقه وحضارته وتنوعه الثقافي وعنفوانه التاريخي. ومن هنا جاءت هذه الندوة، ليس بهدف تقييم الكتاب؛ سواء أكان جيداً أم سيئاً، وإنما نسعى للوقوف على مخرجاته ومفاصله، لنستقصي أي غد سيحمل لأبنائنا، وأي قدس تعلم لأبنائنا، وأي هوية نسعى إلى تشكيلها، وأي مجتمع نحاول بناءه.

وانطلاقاً من تقديرنا العالي لأهمية الموضوع، ألا وهو القدس، وأهمية التعليم عنها وهذه نقطة تُثمن للوزارة وللعاملين فيها، حيث جاء توقيت الكتاب مناسباً وإن كان متأخراً، إلا أنه جاء ليملأ فجوة خطيرة تمس نظامنا التعليمي ومشروعنا السياسي.

ومن هنا، ومن إيماننا كما ذكرنا بضرورة فتح الشأن التربوي على المجتمعي بمعنى «التداخل والتفعيل المتبادل»، ومن الاهتمام بموضوع القدس، جاء تنظيمنا لهذه الندوة، لنراكم على هذه المبادرة عبر رفدها بأفكار نقدية، تنطلق من النظرة التقييمية باتجاه الفعل النقدي بمعناه الإيجابي أو البناء.

بعد أن أصبح الكتاب في متناول المعلمين، وعبر ملاحظاتهم عنه، ومن خلال الإطلاع عليه وعلى مفعولاته في المدرسة وبين المعلمين والطلاب، وكيف أنه شكل مرجعية أساسية ودليل عمل حكم عمليات البحث من قبل المعلمين والطلاب التي اندرجت في منطق الكتاب نفسه، وفي ضوء كل ذلك تم التخطيط لبناء تصور لهذه الندوة، بعد أن استشرفنا العديد من آراء المثقفين والمعلمين، فقمنا بالخطوات التالية:

- حصلنا على مجموعة من النسخ، وتم توزعها على مختصين ومثقفين.
- اطلعنا على الكتاب ورأينا أننا بحاجة ماسة لعمل حوار مجتمعي عنه وحوله.
- وجهنا الدعوة إلى عدد كبير من المثقفين، وراعينا أن يكونوا متنوعي الخلفيات والتوجهات وذوي صلة بالقدس، وبخاصة الصلة الحياتية اليومية.
- وبناءً على ملاحظاتهم الأولية، تم بناء الندوة على محاور عدة تتناول الكتاب شكلاً ومضموناً؛ أي من حيث المضمون الثقافي والشكل الجمالي والمقاربة التربوية.

وتم عقد الندوة بحضور المتحدثين ومجموعة من الحضور الذي

ضم معلمين ومعلمات، حيث تناول الجزء الأول من الندوة تقديم المداخلات الرئيسية، وتلها أسئلة الجمهور وتعقيباته، وفي النهاية تعقيبات المداخلين. وننشر في هذا الإطار تعقيبات وزارة التربية والتعليم – قسم المناهج، حيث قمنا بإرسال نصوص المداخلات للوزارة ليتسنى لهم التعقيب من باب أن ذلك حق أولاً، وثانياً لخلق حاله حوارية حول الموضوع التي هي غايتنا الأولى.

إن المداخلات وما تلاها من حوار قد ركز على قراءة **كتاب القدس** من جوانبه المتعددة، وتمت مقاربته بوصفه نموذجاً مصغراً لما يقدم ضمن نظامنا التعليمي، وبذلك لم يكن الهدف هو تقييم الكتاب بالمعنى التقليدي لكلمة تقييم، بل كان الهدف هو «تأصيل الحوار المعرفي» كجزء من حراكنا الثقافي، والانتباه «لما يقدم لأطفالنا»؛ أي إعادة بناء التيقظ والحساسية المجتمعة تجاه قضايا التربية ومسائلها، «فسؤال ما المستقبل الذي نعده لأطفالنا مرتبط بأي أطفال نعد لمستقبلنا»، ولذلك تمحورت الندوة على مثلث تأصيل المعرفة، والتيقظ المجتمعي، وبناء التكاملية مع عمل وزراء التربية والتعليم ومؤسساتها كمركز المناهج، من خلال محاورة ما ينتج عنها من وجهات نظر متعددة، ومساعدتها على رؤية مخرجاته، وبخاصة في مرحلة زمنية ستقوم خلال الوزارة بالنظر في المناهج وإعادة تقييمها.

في ضوء ما سبق، ومن وحي المداخلات والحوار، يمكننا القول إن هنالك إجماعاً خرج به المشاركون في الندوة على أهمية التعليم عن القدس، وعلى ضرورة هذا الموضوع ثقافياً وتربوياً، وأكدوا على أهمية تعليم القدس للطلبة، لكي يزداد تواصلهم روحياً ومعرفياً معها كمدينة فلسطينية وكعاصمة للدولة الفلسطينية المنشودة، مشددين على ضرورة تذكير الطلبة بأن مدينة القدس وسائر المدن الفلسطينية الأخرى ما زالت تحت الاحتلال، وتحتاج إلى بناء أجيال جديدة تنجز وتواصل مسيرة التحرر الوطني الفلسطيني.

ولكن، رأى المجتمعون أن ذلك يجب أن يبنى في ضوء قراءة واعية للمشروع الفلسطيني السياسي، وفي ضوء ما تفرضه السياسات المجتمعية والثقافية. وقد رأى الحاضرون أن الكتاب مهم وخطير، لأنه مقدم للمراحل التعليمية كافة، وسيتم تعليمه ضمن مواد وحصص تدريسية متعددة (اجتماعيات، لغويات، ديانات)، وأن الكتاب يحاول أن يتضمن معلومات في المجالات التاريخية والجغرافية والسياسية كافة... كما رأوا أيضاً أن ما يطرح في الكتاب من أهداف معرفية وتربوية هو أكبر بكثير مما في الكتاب من مواد معرفية، وهو أيضاً غير واضح ويعوزه الكثير من التنسيق والتدقيق.

وأجمعوا على أن الكتاب خال من أي نص حي، أو من أي أثر تفاعلي مباشر يتركه لدى الطلبة والمعلمين للتفاعل مع مدينة القدس كمدينة حية، وإنما يصور الكتاب القدس كأنها مدينة من التاريخ اندثرت ولم تعد موجودة. فلقد أغفل الكتاب جميع حيثيات الحياة اليومية للمقدسين؛ أعيادهم، احتفالاتهم، طقوسهم الخاصة، وأغفل أيضاً بيداغوجيا تفاعل البشر مع الحجر في القدس، فلا حكايتهم ولا نواديهم ولا قصصهم ولا كثافة حضارتهم منصوص عليها في الكتاب، وكأنها خالية من سكانها. فلا نضال المقدسيين الاجتماعي والثقافي والسياسي اليومي، ولا معاناتهم من جراء الاحتلال، مذكورين في الكتاب.

> د. إصلاح جاد: لا منطق يحكم الكتاب
> «الكتاب لا يحكمه أي منطق ثقافي أو تربوي، وذلك لغياب الرؤية الواضحة والضغوطات الخارجية»، هذا ما قالته د. إصلاح جاد في مداخلتها، وفيما يلي نصها:

في الواقع جاءت هذه المداخلة مع ظروف نفسية صعبة، فعندما قمت بزيارة للقدس ومررت بالحواجز التي جعلت الطريق طويلة جداً حتى تصل القدس، بدأت أشعر بحجم المعاناة والعزل والتغيير الذي أصاب المدينة، كما تكرس شعور الاغتراب، ففجأة تجد نفسك أمام مرور قطار لا تعرف من أين أتى وإلى أين ذاهب، فقرأت الكتاب في هذه الظروف، لأخرج بثلاث ملاحظات مهمة جداً:

الملاحظة الأولى: **الانتقائية في الأهداف**، بحيث لا يوجد عرض تسلسلي بالمعنى التاريخي، ولا على مستوى الحدث، فهنالك انتقائية في الأحداث، ولا يوجد تسلسل منطقي لها، وهذه الأمثلة دليل على الانتقائية؛ فمثلاً التركيز على هبة البراق دون ذكر أي شيء عن ثورة العام 1936. فإذا كان الهدف التعريف بثورات الشعب الفلسطيني ضد الانتداب ومراحل مقاومته، فكيف يتم تجاهل ثورة بحجم ثورة 1936-1939 وضخامتها؟! وما مغزى التركيز هنا فقط على هبة البراق؟ هل لأنها أخذت منحى الدفاع عن المسجد الأقصى حين حاولت مجموعات يهودية أن تضع لها موطئ قدم فيه؟ وإذا كان الأمر كذلك، فمرة أخرى كيف يتم تجاهل ثورة العام 1936 التي كانت تدافع عن كل الوطن من التغلغل الصهيوني بما في ذلك مدينة القدس؟! كذلك التركيز على المؤتمر الإسلامي الأول سنة 1931، وعدم التركيز على مؤتمرات أخرى لا قبل هذا المؤتمر ولا بعده.

كذلك بالنسبة للانتقائية، وهذا ما يشترك مع النقطة التي سوف أتحدث عنها، وهي ما هي الرسالة؟ نجد في البداية الحديث عن مهبط الديانات السماوية، وفي الوقت نفسه نجد تركيزاً مبالغاً فيه على الفتح الإسلامي، ولا يوجد أي إشارة إلى الآثار المسيحية الموجودة في القدس، إلا في سياق الحديث عن الغزو الصليبي، والسياق الثاني في علاقتها مع المسلمين؛ أي دخول عمر بن الخطاب للقدس، وغير ذلك لا يوجد أي ذكر للبعد الديني المسيحي، على الرغم من أن المدينة تحوي العديد من الآثار والكنائس المسيحية المهمة، وتحوي أيضاً المسيحيين الشرقيين الذين لهم تراث عربي شرقي ووطني مهم جداً في القدس، وهي مكون رئيسي من مكونات الشعب الفلسطيني.

الملاحظة الثانية: غير الانتقائية وغير غلبة الطابع الديني، هنالك ملاحظة حول **استخدام المفاهيم**، فمثلاً كتبوا «الاستيطان الإسرائيلي»، يوجد مليون ومأتي ألف عربي في إسرائيل يحملون الهوية الإسرائيلية، من وجهة نظري هؤلاء ليس لديهم علاقة بالاستيطان، وعندما أقول استيطاناً إسرائيلياً فإن هذا الأمر يعني أنني شملت هؤلاء الناس. هناك تفرقة كبيرة بين المفاهيم الثلاثة، من هو اليهودي؟ ومن هو الإسرائيلي؟ ومن المستوطن؟

كان الأجدر بواضعي المناهج الفلسطينية الإشارة إلى الاستيطان اليهودي. كذلك الخرائط، لا تدل على أي شيء مجدد، فمثلاً الخارطة الواردة في صفحة 37، التي تشير إلى المستوطنات اليهودية في فلسطين بداية الانتداب، ليست هي أفضل الخرائط التي يمكن استخدامها في المناهج، بمعنى لا توجد خرائط تدل على حجم التوسع الاستيطاني والمساحات التي تقلصت في فلسطين مع مرور الوقت.

الملاحظة الثالثة: هذه النقطة لها علاقة بموضوع مداخلتي، وهي استغرابي من **كثرة النصوص الشعرية** في الكتاب. تفسيري لهذا الأمر قد يعود للضغوط الخارجية على واضعي المنهاج الفلسطيني، حيث تحاسب النصوص على كل كلمة وكل جملة، إضافة إلى الروح العامة التي يكتب بها النص. فالنصوص الشعرية تحمل روحاً حماسية وجهادية واضحة، فهل المقصود هنا أن يقال عبر النص الشعري ما يصعب قوله في النص العادي تلافياً للضغوطات؟ هذا أمر لا يفسره بالطبع إلا واضع النصوص الشعرية نفسه.

> محمود شقير:
> «هذا الكتاب يعاني من ضعف وارتباك، ولا يعطي صورة حية نابضة للقدس»

هذا الكتاب ضعيف ومرتبك، ويجب أن ترتفع الأصوات عالياً وتدعو لسحبه من المدارس. لا أريد أن أكرر ما ذكره الإخوة الذين تحدثوا قبلي. فالكتاب الذي يجري الحديث في بعض صفحاته عن ضرورة احترام التعددية، لا يتوفر فيه احترام التعددية بالفعل.

ففي حين يجري التركيز على القدس باعتبارها مدينة عربية إسلامية حدّ المبالغة، والدخول في تفاصيل لا ضرورة لها، فثمة مرور سريع على الطابع المسيحي للمدينة، الذي يدلل على عراقة القدس وعلى تعدديتها، وتنوع مصادر ثقافتها التي أغناها ويغنيها المسيحيون الفلسطينيون قديماً وحديثاً.

كما لاحظت أن الكتاب لم يتطرق إلى التاريخ الفلسطيني الحديث، إلا على نحو محدود جداً، حيث جرى ذكر ثورة البراق العام 1929، وفيما عدا ذلك، فقد تم تجاهل تاريخ الحركة الوطنية الفلسطينية المعاصرة ونضالاتها وتضحياتها، ولم يتم ذكر بعض رموزها البارزين من الشهداء والقادة والمناضلين (مثلاً: الشهداء: الشيخ عز الدين القسام، الشاعر عبد الرحيم محمود، القائد عبد القادر الحسيني).

ولم يتطرق الكتاب، إلى حركة التنوير الفلسطيني التي أسهمت في التأسيس للحداثة الفلسطينية، وقدّمت نتاجات أدبية وفكرية، لمفكرين وأدباء وشعراء فلسطينيين من أمثال روحي الخالدي، وخليل السكاكيني، وبندلي الجوزي، وخليل بيدس، وإبراهيم طوقان، وعبد الكريم الكرمي (أبو سلمى)، ونجاتي صدقي، وآخرين ممن ظهروا قبل النكبة الفلسطينية. ولا أريد أن أذكّر بأسماء أدباء ومفكرين فلسطينيين، ظهروا بعد النكبة الفلسطينية، وأسهموا في إثراء الثقافة الفلسطينية المعاصرة، ويقف في الطليعة منهم، الراحلون الكبار: محمود درويش، وغسان كنفاني، وإميل حبيبي.

والكتاب يعاني من ضعف في اللغة، وفي المصطلح، وفي تحديد دلالات الكلمات. ومن الأدلة على ذلك، استخدام بعض المصطلحات التي يرددها الإعلام الإسرائيلي، فالكتاب لا يتحدث عن ضم القدس إلى دولة الاحتلال الإسرائيلي، وإنما عن توحيد القدس!

ويتحدث الكتاب عن الجدار، مرة باعتباره جدار الفصل العنصري، وأخرى باعتباره الجدار الفاصل. ولا يقف الأمر عند هذا الحد، بل يصل حدّ تقديم معلومات مغلوطة، كأن يجري التأكيد على أن الجدار يفصل القدس الشرقية عن القدس الغربية! وهذا غير صحيح.

ومن المفارقات أن الكتاب يتوقع من الطالب الفلسطيني، أن ينمي شعوره بالتضامن مع الشعب الفلسطيني! أي أن يتضامن الطالب مع نفسه! فهل هذا معقول! هذا علاوة على بعض التوجيهات الفضفاضة، الموجهة إلى الطلاب بخصوص القدس، التي تفتقر إلى الدقة لكي تكون منطقية ومعقولة، وقابلة للتأثير في النفس.

وحيث أن بعض شعراء القصيدة العمودية ما زالوا ميالين إلى المبالغة، للتعبير عن مشاعرهم الجياشة، بغض النظر عن مدى انطباق شعرهم على واقع الحال، فإن الطلاب معرّضون للوقوع في التناقض الصارخ بين الشعر والواقع، فلا يدرون، هل يصدقون الشعر أم يصدقون الواقع المر الذي يرونه أمام عيونهم. ففي قصيدة عن القدس في صفحة 19 من الكتاب، ورد البيتان التاليان في سياق إحدى القصائد:

القدس نسدّ مداخلها ... في وجه جميع الغرباء
لو سرقوا يوماً ضحكتها ... مزقت التاريخ ورائي

طبعاً أنا أقدر النوايا الطيبة للشاعر، لكن الحقيقة المرة الماثلة أمام عيون الجميع، هي أن المحتلين الإسرائيليين هم الذين يسدّون مداخل القدس في وجوهنا! وهم الذين سرقوا ضحكتها! ونحن نسعى جاهدين لكي نفضح ذلك ونضع حداً له.

وما دمنا نتحدث عن الشعر، فإن بعض القصائد المختارة ضعيفة إلى الحد الذي لا يؤهلها للظهور في هذا الكتاب، وهناك شعراء فلسطينيون وعرب متميزون كان من الأجدر لو أنهم ذكروا في الكتاب. وأما قصيدة الشاعر العربي السوري عمر أبو ريشة، فقد تم اختيارها لطلاب الصفوف الأولى، وهي من الجزالة بحيث كان الأجدر بها لو تم اختيارها لطلاب المرحلة الأخيرة.

ومن مقدمة الكتاب، نعرف أن الخطة المستهدفة تتكون من أربعة محاور، ويتعلّق المحور الرابع بما أطلق عليه: "أدب القدس". في هذا المحور، تغيب كل أجناس الأدب من رواية وقصة ومسرحية وسيرة ومقالة صحافية، وتحضر بعض النماذج الشعرية فقط.

وفي القدس حياة ثقافية معاصرة، أخذت تتبلور منذ بدايات القرن العشرين، وفيها مراكز ثقافية ومؤسسات معنية بالثقافة، ومعنية أيضاً بتأكيد طابع القدس العربي الإسلامي المسيحي الذي تجري الآن حملة صهيونية منهجية لتغييره، ولتهويد المدينة! فلماذا لم يجرِ التطرق ولو

باختصار للحياة الثقافية الراهنة في القدس؟ ولماذا يغيب الفن التشكيلي والسينما والمسرح والغناء والموسيقى، لماذا؟

صورة القدس في الكتاب

عصام نصار*

عند الحديث عن كتاب يرشد العملية التعليمية حول مدينة القدس وأهميتها فلسطينياً، من الضروري التذكير بأن دراسة تاريخ هذه المدينة –وعموم الدراسات التاريخية– تشكل عملية متعددة الجوانب والأهداف والنتائج.

فكتابة التاريخ –وبخاصة في الزمن القومي– غالباً ما تشكل نشاطاً انتقائياً يستند، ليس إلى مبدأ تذكر الماضي فحسب، بل أيضاً إلى رديفه وهو مبدأ نسيان الماضي. فالمؤرخ ليس بساحر يمتلك شامل المعلومات حول التاريخ برمته، ولا هو بكائن يعيش خارج إطار تاريخ زمنه أو مصالح ذاك الزمن. وعليه، فكتابة التاريخ، بما فيها من نسج للتزمين التاريخي وانتقاء للأحداث وتحليلها والتنظير؛ بمعنى استخدام النظرية، حولها، وكتابة نص سردي، وما إلى ذلك، هي عملية تتطلب وتفترض مسلمات معينة لا إجماعَ بين المؤرخين عليها.

نجد هذه الانتقائية بوضوح في أعمال المؤرخين الصهاينة، والتواريخ التي يكتبونها عن القدس. فنصوصهم التاريخية عموماً تستند إلى ذاكرة جماعية يهودية حول القدس، مستمدة من التراث اليهودي والكتب المقدسة لديهم، وفي الوقت ذاته تستند إلى نسيان أو تناسي كل التواريخ غير اليهودية للمدينة. وكون اللاحقة تشكل جل تاريخ المدينة، لم يمنع مؤرخي المدينة الصهاينة من تعظيم شأن المراحل اليهودية، لجعلها مرجعاً لدراسة تاريخ المدينة. فمثلاً نجد أن نظام التزمين المتبع لديهم –الذي يتبناه اليوم العديد من المؤرخين غير الصهاينة– يستند إلى مراحل تاريخية سميت بفترات الهيكل الأول والهيكل الثاني. ولهذا، فعندما يتحدث المؤرخ عن القدس في زمن المسيح، نجده يضع الحدث في زمن الهيكل الثاني، جاعلاً من التأريخ اليهودي مرجعه الأساسي. وعليه، فإن السمة الأساسية للخطاب الصهيوني حول القدس هي الانتقائية من الماضي السحيق، ورؤية تاريخ المدينة عبر تقسيم سكانها إلى جماعات يفترض أنها متنازعة، وكانت دوماً كذلك منذ فجر التاريخ. وإذا كانت هذه إحدى إشكاليات الكتابة حول القدس حين يتعلق الأمر بالخطاب الرسمي الصهيوني، فهي ليست الإشكالية الوحيدة، وليست حكراً خاصاً على الخطاب التاريخي الصهيوني. فكتابة تاريخ القدس طالما عانت –وبغض النظر عن هوية كتابها، سواء أكانوا عرباً أم صهاينةً أم أوروبيين أم غيرهم– من إشكاليات عديدة ترتبط بدراسة تاريخ هذه المدينة.

من ضمن هذه الإشكاليات، نجد التركيز الهائل على تاريخ المدينة في الإطار الديني فقط، وعلى أهمية المدينة كمكان مقدس للديانات الإبراهيمية الثلاث أو إحداها فقط. **الإصرار على رؤية المدينة كمكان مقدس، جاء على حساب رؤيتها كمدينة حية ذات مجتمع وتاريخ اجتماعي وثقافي خاص بها**. وبالارتباط بهذه النزعة، نجد أن التواريخ المكتوبة ركزت أكثر على المدينة كبلد عريق وتاريخي، جاعلة من المراحل

القديمة المرجع الرئيسي لفهم التاريخ المعاصر، ومعطية أهمية هائلة لمراحل سابقة، سواء أكانت يهودية أم كنعانية أم رومانية أم إسلامية.

من تبعات الرؤية هذه أن تطور المدينة وتحديثها قد أصبحا جزءاً، أو حتى حكراً، على عوامل خارجية عنها وهي غالباً أوروبية. هذه الرؤية استشراقية أساساً، وتضع الغرب أو عملاءه مصدراً لتطور المدينة دون إعطاء أيِّ دور لسكان المدينة أنفسهم. وعدم رؤية السكان تمتد لتشمل الدراسات التي ترى القدس مدينةً أو متصرفيةً عثمانية، لا يمكن فهم تاريخها دون فهم التطورات الدولية والعثمانية، وبخاصة في اسطنبول، محولة السكان ملحقات أو أدوات للعاصمة أو للأوروبيين، لا دور لهم في تطور مدينتهم على الإطلاق.

نظم التأريخ هذه، ساهمت في تشكيل رؤية تاريخية للمدينة، تظهرها كمكان عاش حالة التنازع فقط، ويتأثر بالسياسة بمفهومها الدولي ليس إلا. وبالطبع، هذه الإشكاليات ليست شاملة، لكنها الأهم التي تعاني منها تواريخ المدينة المكتوبة. السؤال أمامنا هو: هل يعاني هذا الكتاب من أيٍّ من هذه الإشكاليات؟ وماذا يقدم للطالب الفلسطيني من تاريخ القدس وأهميتها على مدار التاريخ؟

لنبدأ بشكل الكتاب أولاً،

هذا كتاب مطبوع على ورق مقوى ومصقول، وبمقدمة تستخدم خطاً جميلاً، لكن تصعب قراءته، وغير مألوف في الكتب الجديةِ. ويشمل الكتاب صوراً عدة تغيرت معالم بعضها خلال عملية صفِّ الكتاب، فقبة الصخرة مثلاً تظهر بمقاييس مغلوطة، وكذلك الأمر مع صور أبواب المدينة. ناهيك عن الأخطاء الإملائية. واختيار الصور أيضاً إشكالي؛ فقبة الصخرة تظهر مرات عدة، وكذلك المسجد الأقصى، ولا تظهر كنيسة القيامة مرة واحدة. وكذلك الأمر فغالبية الصور إن لم تكن لأماكن دينية فهي سياسية دعائية؛ مثل صور الجدار الفاصل، والقمع الإسرائيلي. ما لا يوجد ضمن الصور هي حياة المدينة مثل صور الأسواق، والباعة، والبيوت، والمناسبات المختلفة. ولا توجد صور حول الأحداث المهمة؛ مثل سقوط القدس على يد الإنجليز أو الإسرائيليين أو غيرهم. صور بوابات المدينة غالباً لا تذكر اسم الباب، ولا تعلّق على التغيرات التي جرت عليه من قبل إسرائيل، مثل بابي العمود والخليل. أمثلة أخرى تشمل صورة جبل الزيتون (ص: 28)،

التي ليست لجبل الزيتون، بل أخذت من موقع عليه، ولا يفسر العنوان مثلاً الكنيسة التي تظهر في وسط الصورة! وفي الوقت ذاته، نجد أن وصف صورة جبل الزيتون ذاته في موقع آخر من الكتاب، يظهره كجبل الطور فقط (ص: 68)، لماذا لم يشمل الوصف أن هذا هو جبل الزيتون أيضاً؟

من ناحية الصور، فهذا الكتاب لا يقدم الكثير، بل يضر أكثر مما يفيد. وعلى ما يبدو أن الوزارة قد كلفت أحداً ما بتصوير ما يعتقد أنه مناسب، بدل أن تأخذ الصور على محمل الجد، وتفكر في معانيها. لماذا لم يتم استخدام صور تاريخية؟ لماذا لم يتم تصوير حياة المدينة الاجتماعية؟

لماذا لا تقدم لنا الصور شيئاً عن الأحياء العربية في القدس الغربية التي صودرت العام 1948؟

لننتقل إلى محتوى الكتاب،

عموماً، يعاني هذا الكتاب من كل الإشكاليات التي أشرت إليها أعلاه. فهو يرى المدينة أساساً كمدينة مقدسة ويربطها بالأديان، وبخاصة الإسلام، فيما يتجاهل اليهودية عموماً. وبهذا، فإن هذه الخطة صهيونية ولو بالمقلوب. كذلك الأمر، فهذا الكتاب يرى المدينة ببعدها التاريخي، معلياً شأن الكنعانيين، وكأن ذلك يرد على الادعاء الصهيوني بأن المدينة يهودية نظراً لارتباطها بالتاريخ اليهودي، فهناك حتى خارطة للدولة الكنعانية (ص: 41) مشكوك تماماً في صحتها. وهدف الدرس الأول في المراحل كافة هو تعريف المدينة بعروبتها وكنعانيتها، وكأن الاثنتين مرتبطتان وتتبعان بعضهما بعضاً. أنا لم أجد دليلاً واحداً على إثبات أن الشعب الفلسطيني اليوم هو استمرار للكنعانيين، وطبعاً قد يكون كذلك بمعنى أنه استمرار لهم ولليهود وللرومان وللإغريق وللمسلمين والصليبيين والأتراك . . . الخ. لكن الخطاب التاريخي الفلسطيني، كما أفهمه، ليس صورة مرآة للتاريخ اليهودي، بل إنه أكثر شمولية.

الخطة لا ترد على الاستشراق بنقده أو إثبات خطاياه، بل بتبني خط "استغرابي" ينتقص من دور غير المسلمين، هناك فصل كامل مثلاً عن أرض المحشر والمنشر! وفي الوقت ذاته، الاستشراق في النص يكمن في عدم ربط المدينة بمحيطها ورؤيتها بشكل مستقل.

تهدف هذه الخطة كما يرد في النص إلى اعتزاز الطالب بعروبة القدس (ص: 8)، ما معنى هذا؟ أليس دور الدرس هو تعليم الطالب وليس الاعتزاز بأي شيء؟ أليس الاعتزاز فارغاً إن لم يستند إلى معلومات موثقة وتاريخية صحيحة؟ وفي الوقت ذاته ما معنى أن يستنكر الطالب ما حل بالشعب الفلسطيني (ص: 13)؟ ألا نريد معلومات حول ما حل به قبل أن نشرع بالاستنكار؟ وعلى الرغم من عدم معرفتي بمبادئ الخطط الدراسية عموماً، اعتقد أنها أهدافها يجب أن تكون التعليم والتثقيف والتوعية وخلق المواطن –مع المعذرة كون الكلمات تشبه خطابات زعماء عرب– القادر على التفكير والنقد واستيعاب ما للتاريخ من وزن على حياته ومستقبلة كفلسطيني. لماذا لا نجد هذه الأمور ضمن الأهداف؟ كيف نستبدل التثقيف بالاعتزاز والمعرفة بالاستنكار؟

وبما أننا في باب الاعتزاز والاستنكار، أين تاريخ الفلسطينيين في القدس؟ أين الحركة الوطنية وتاريخها منذ أواخر العهد العثماني؟ أين تاريخ المدينة كبلد مفتوح للجميع ومتعدد الثقافات واللغات؟ أين حركة الحداثة في المدينة وتغيرها معمارياً واجتماعياً؟ أليست هذه أسباباً أكثر أهمية في تشكيل الاعتزاز؟!

والاعتزاز والاستنكار ليسا وحيدين في النص، بل هناك استخلاص العبر أيضاً. جميل، فاستخلاص العبر جزء من عملية البحث التاريخي. لكن ليس هذا ما يقصده المؤلفون، بل إنهم يطالبون الطلبة في الخطة الثانية باستخلاص العبرة من محبة الأنبياء للقدس؟! ما معنى ذلك؟ وهل هذا موقعه بدل أن يكون هذا الهدف خاصاً بدرس الدين مثلاً؟

والطالب لا يعتز أو يستخلص العبر فحسب، بل من المطلوب منه أن يقتدي ويثمّن الدور (الأردني!) والأموي والعباسي. وخير وسيلة للتثمين ليست ما يتوقعه المرء من قراءة الوثائق التاريخية، بل يتم ذلك عبر قراءة الشعر. كنت أعلم مدى حب العرب للشعر، لكني لم أدرك أن ذلك يأتي على حساب الحس التاريخي والبحث الجاد. قراءة الشعر على أهميتها لغوياً وجمالياً وقومياً ليست بديلاً لتعليم الطالب عن حقيقة ارتباطه بالقدس، كونها مدينة فلسطينية مهمة، ناهيك عن أن هناك عدداً كبيراً من قصائد حتى لشعراء لم نسمع بهم من قبل.

النص سياسي أكثر مما يجب؛ وأعني بسياسي أنه آني وليس شاملاً. ولا أقصد التقليل من أهمية العامل السياسي، فكل نص هو سياسي بمعنى من المعاني، وسرد تاريخ القدس هو نشاط سياسي بامتياز. لكن لا داعي لأن يكون النص سياسي بالمعنى السطحي فقط، دون دقة أو عمق تاريخي. كذلك الأمر على النص أن يكون دقيق المعلومات، وخالياً من الأخطاء. فما معنى الحديث مثلاً عن الصراع العربي الإسرائيلي قبل وجود إسرائيل (في العهد البريطاني) (انظر ص: 13)؟ ألا نجد مصطلحاً أفضل لوصف الصراع آنذاك؟ وما معنى عدم الدقة في التواريخ (ص: 134 مرة أخرى): احتلال القدس كان في 11/ 12/ 1917 عند دخول اللنبي، 9/ 12 كان يوم توجه رئيس البلدية إلى المعسكر الإنجليزي خارج المدينة ليعلن الاستسلام.

وأخيراً هناك إشكاليات في المصادر والمراجع، وليست فقط من نوع

تنظيم المصادر وترتيب المراجع من حيث الأسماء والعناوين والناشرين، بل من ناحية المحتوى ذاته، حيث تفتقر القائمة إلى مصادر تعتبر مهمة نشرت حول القدس وفلسطين مثل كتابات وليد الخالدي، ورشيد الخالدي، وبشارة دوماني، وعادل مناع، وبطرس أبو منة، وكامل العسلي، وغيرهم، ناهيك عن الدراسات باللغات الأجنبية.

وعلى الرغم من أن معرفتي ضحلة في مجال الخطط الدراسية، لا يبدو لي هذا الكتاب أفضل ما يمكن تقديمه للطالب والمعلم على السواء. لكني في الوقت ذاته **سعيد بأن الوزارة تعطي أهمية لتدريس مساق خاص حول القدس**. إيلاء المدينة هذه الأهمية مسألة ضرورية، **وأهنئ الوزارة في أخذها الموضوع على محمل الجد**. لكن هذا بذاته **لا يعفي الوزارة من مسؤولية إنتاج نص جيد وخطط ملائمة وجدية ومستندة إلى آخر الدراسات البحثية**. الكتاب بين أيدينا يفشل في تقديم القدس للطالب كمدينة عريقة ونموذج للتعددية والاستمرارية التاريخية للمجتمع الفلسطيني المقدسي، فمكان الكتاب هذا بأحسن الأحوال هو ضمن كتب الدعاية، وليس كتب التعليم. الخطط المزودة في غالبها استشراقية وصهيونية بالمقلوب، ولا تساعد الطالب على رؤية القدس أو تخيلها، ولماذا نستثني زيارات الطلبة للقدس من المنهاج؟ ألا يعني هذا قبولنا بالأمر الواقع الذي يحد من حركة المواطن في مناطق السلطة؟! ألا نتوقع أن تتغير الأمور يوماً ما؟

ألا تتحمل الوزارة مسؤولية المساهمة في تطوير المعرفة لدى الطالب، والتفكير ليس في إنتاج كتاب فحسب، بل بمدلولات هذا المنهاج وأثره على نظامنا السياسي مستقبلاً، وعلى نوعية علاقة الطالب بالقدس كعاصمة مستقبلية لدولته الوطنية التي نطمح بإنشائها.

الولايات المتحدة، آذار 2009

القدس بين التربوي والثقافي والسياسي
يزيد عناني: تغييب القدس من كتاب القدس

شدّ انتباهي أثناء قراءتي لكتاب "القدس – الوطن والروح" الصفات والأفعال والأسماء التي استُخدِمت لتمثيل القدس في صفحات الكتاب، الذي يبدو أنه منهاج تعليمي إلزامي يبني من خلال مضمونه صورة أحادية للقدس. فعلى سبيل المثال، يمكن للقارئ أن يلاحظ التمثيل اللغوي في "المستوى الأول" من جدول المحتويات في تعابير المعاني التي تنبني عليها التحليلات في النصوص التي تلي كلمات مثل: القديم، العربي، الإسلامي، الغزو، الصليبيين، التحرر، العثمانيين، المسجد الأقصى، الانتداب البريطاني، الاحتلال الإسرائيلي، المستوطنات، الجدار، الأمم المتحدة، القدس في القلب، وأقسم بالله.

يظهر وكأن الكتاب يصوغ مسبقاً **دلالة بيداغوجية سطحية للقدس سيجري إدراجها في المناهج التعليمية**، تتشكل مرجعيتها من خطاب كمي وتاريخي يجرّد القدس من تعدديتها المكانية والزمانية، ويمنع الطلاب من بناء دلالاتهم الفردية المنبثقة من تجاربهم التي يعيشونها.

أتوجس لو فكرت، على سبيل المقارنة، أن لدى الإسرائيليين في نظامهم التربوي منهاجاً خاصاً بمدينة القدس. إن كان ذلك حقيقياً، فإنني سأفكر بأن إسرائيل تستخدم قوة المعرفة لنسج صورة للقدس وإقحامها في حياة الطلاب الإسرائيليين وعقولهم، وستحافظ تلك الصورة على استمرارية خطابهم التوراتي، وتعزيز ربط الكولونيالية في الفراغ. فهناك الحاجة إلى هذا النوع من المعرفة لبناء رواية خيالية تستوحي براهينها من علم الآثار والتاريخ وقصص العهد القديم.

وفي السياق ذاته، ومما ينذر بالخطر، إن كتاب القدس **يستخدم منطق الخطابة نفسه، بحيث تم اختزال القدس معمارياً إلى نصب دينية**: "قبة الصخرة"، "المسجد الأقصى"، "كنيسة القيامة". أما بقية المدينة بدلالاتها المعقدة وغناها، فقد تم تمثيلها وكأنها فارغة وغير موجودة. فتُصور القدس كمدينة قديمة مسوّرة ومحصنة وفارغة **دون أية ممارسات حياتية أخرى عدا تلك المتمثلة بالنصب الدينية**.

أما التمثيل الآخر للعمارة في الكتاب فيتجسد في عمارة إسرائيل الكولونيالية المتحكمة والاضطهادية. فالجدار، والمستوطنات، والطرق الالتفافية ... الخ، تحيط بالمدينة "المعتقة" كما يصورونها. هناك نوع من الخضوع والعجز تجاه استعمار المدينة، وذلك من خلال التكرار المتواصل لكيفية تحكم إسرائيل بفراغ المدينة، وتحويل المقدسيين والفلسطينيين إلى ضحايا. **فالمقاومة اليومية التي يمارسها المقدسيون**

لمجابهة السيطرة الإسرائيلية على الفراغ من خلال خلق بدائل للحركة، والبناء وإثبات المواطنة . . . الخ، ليس لها أي وزن في الكتاب، أو أية دلالة بيداغوجية. والتفسير الممكن لهذه النقطة تحديداً يعود للقضية المشار إليها أعلاه في إخلاء القدس من أهلها، التي تبدو واضحة في تمثيل صورة القدس في الكتاب.

أما ما يغذي الرواية الرومانسية والشعرية التي يقدمها الكتاب (يعكس الخطاب الاستعماري في إملاء المعرفة في كتب التاريخ) هو تمجيد اللحظات التاريخية للنصر والانتصار. فمن الواضح أن ما يعرضه الكتاب هو كأن مدينة القدس لم تكن موجودة قبل الإسلام، أو قد تكون موجودة كخربة أو آثار دون حياة أو ثقافة؛ فارغة من إنتاج فراغي ومعرفي. فتاريخ الانتصار هو التاريخ الذي يعيد للقدس صورتها الإسلامية، وهو يبرز في التقديم التاريخي المتكرر لبطولة صلاح الدين وإلحاقه الهزيمة بالصليبيين. فاستخدام الرواية التاريخية الخطية الملحمية في الكتاب، يخلق قطبية تتناوب فقط بين الإسلام والاستعمار، وتفرغ كل التجارب والتمثيلات الأخرى لماهية القدس.

لقد امتدت القدس دوماً إلى ما وراء الأسوار؛ ولم تكن الأسوار دائماً المحدد المناطقي للنسيج البنائي والفراغي للمدينة. فقد أخلى الإسرائيليون مساحات واسعة من المباني الفلسطينية خارج الجدار، واستمروا في تحويل المساحات المحيطة به وتنظيفها من أجل إنتاج وتسويق صورة لما داخل الجدار بأنها المركز التاريخي القديم "للقدس الكبرى" (تشبه تلك المراكز التاريخية للمدن الأوروبية)، فهذه السياسة الفراغية الخطيرة تستحث تحكماً عكسياً بالقدس المسورة. فبدلاً من التحكم بالمدينة من داخلها، تعمل إسرائيل على التحكم بها من الخارج، من خلال إستراتيجية الاحتواء داخل البنية الفراغية الإسرائيلية الخارجية التي تحيط بالأسوار، والتي يجري إنتاجها بصورة حثيثة، ما يطبّع تواجد ما داخل الأسوار مع المنتج الفراغي الإسرائيلي خارج الأسوار، فتبدو الحقيقة بأن الجدار يضم مدينة القدس، وكأنها مقاطعة في قلب "القدس الكبرى". فالكتاب بسذاجة يؤكد قطعياً على تعريف القدس كمدينة موجودة فقط داخل الأسوار.

يذكرني كثيراً وصف المشهد الطبيعي حول مدينة القدس الوارد في

نصوص الكتاب بالحقبة الرومانسية في أوروبا، حيث تغنى الشعراء والكتاب والفنانون بإلهام الطبيعة والريف وجمالهما بريّتهما آنذاك، فتم اختزال الريف الحقيقي إلى أشجار وبيوت قديمة وحقول زراعية وقطعان من الخراف والرعي فقط، حيث تم تغييب الحياة والقيم المحلية التي أدت إلى إنتاج الجماليات التي تغنى بها مثقفو تلك الفترة.

هل وصلنا إلى حالة من استخدام عدسات الاستشراق في النظر إلى أنفسنا أو في إنتاج وإملاء معرفة تطابق من نحن في ما نراه في عدسات الاستشراق؟ هل وصلنا إلى مرحلة نسيّر فيها المعرفة البيداغوجية لتضطهد تنوعنا السرمدي وتعددنا وقيمنا المحلية والحياتية لأمكنة مثل القدس؟

القدس كواقع حي وأفق حضاري
منير فاشه

من النادر جداً أن أشعر بيأس أو إحباط أو اكتئاب، ولكن أعترف أن هذا الكتاب نجح في خلق شعور لدي بالإحباط، وفي تعميق قناعتي بأن منطق التعليم الرسمي منذ نشأ في أوروبا قبل 350 سنة غير قادر على رؤية الغنى في الحياة، وغير قادر على توليد الحياة . . . أعترف أنني كلما أعي –من جديد– مقدار ما يقوم به التعليم الرسمي من خداع للعقول، وتخدير للشعور، وضحالة في الإدراك والفهم والتعبير، يصيبني –من جديد– يأس لا أخرج منه إلا بعد فترة نقاهة أعيش فيها بعيدا –قدر الإمكان– عن عالم المؤسسات والمهنيين والكلمات الرسمية. الإحباط الذي شعرت به لا يرتبط بالكتاب بشكل منفصل عن الأمور الأخرى، أو بالأشخاص الذين قاموا بوضع الكتاب . . . لو كان الحال كذلك، لهان الأمر. المشكلة التي أراها أعمق وأخطر، فهي ترتبط بمنطق التعليم الرسمي الذي يؤدي بالعاملين في التعليم إلى وضع مثل هذا الكتاب. **أن تتحول القدس من رؤيا وروح وأفق حضاري –تعيش جميعاً في إدراكات وعلاقات وحياة أهاليها– إلى قالب جامد ميت** «أهداف ومحتوى ووسائل وأساليب وأنشطة» (في كل صفحة من الكتاب تقريباً!)، **وأن تتحول القدس من مصدر إلهام وغنى إلى معلومات متفرقة لا روح فيها ولا حياة ولا حيوية** . . . هو مثال صارخ على ما يحدث في المؤسسة التعليمية، حيث تُعتبَر المعرفة كومة كبيرة من المعلومات (نسميها في الجامعات مساقات ومهارات) لا تجمعها رؤيا، ولا تكوّن صورة واحدة في الأذهان . . . مثال من الكتاب: «البحث عن معلومات مناخية من خلال الإنترنت، ورصد الحالة الجوية لمدينة القدس لعدة أيام»! يا إلهي، ماذا يحصل للعقل والإدراك؟!

إلا أن أكثر ما أخاف أن يحصل هو أن نعتقد أن المشكلة موجودة في هذا الكتاب، وكأن باقي كتب المناهج بألف عافية؛ أي، الاعتقاد بأن هذا الكتاب يختلف عن الكتب التي تقرر في وزارات التربية حول العالم. لا يختلف الكتاب عن أي كتاب مقرر، إذ سيكون مملاً للطلبة ومولداً لكراهية القدس، تماماً كما يملّ ويكره أغلب الطلبة الرياضيات والعلوم واللغة العربية والإنكليزية والتاريخ . . . الخ. شعورنا بالراحة بالنسبة لكتب الرياضيات واللغات والتاريخ والعلوم ناتج من أننا تعودنا عليها، أي تَخَدَّرنا تجاهها، بحيث فقدنا القدرة على رؤيتها على حقيقتها. «القدس» كموضوع منهاجي هو موضوع جديد، ولهذا السبب نرى

العلّة في الكتاب بسهولة؛ أي أن المشكلة تكمن في منهجة القدس. من هنا أرى أن الكتاب يمثل فرصة نادرة لإعادة النظر في دور الكتب المقررة -في شتى المواضيع- في تسطيح الأمور وإلغاء ما هو جوهري؛ أي، فرصة للتوقف عن لوم المريض ونسيان المرض، ولاكتشاف أن ما اعتقدنا بأنه الدواء كان أصل الداء.

الشرذمة صفة ملازمة للتطور منذ تبلوُر ما يسمى بالنهضة الأوروبية (والتي نراها على حقيقتها حالياً). الكتاب يجسد هذه الشرذمة. الصفحتان 4 و5 مثال صارخ على الشرذمة، على مستويات عدة. كذلك، فهما مليئتان بتجريدات لا علاقة لها بحياة الناس. فالأهداف مثلاً تشمل أموراً رمزية مجردة وتهمل أموراً جوهرية. تشمل مثلاً التعرف «على المكانة الدينية لمدينة القدس»، ولكن لا ذكر للنسيج بين الناس، بين مختلف الأديان، الذي كان يُجدل يومياً في البيوت والحارات والأسواق، وبشكل رئيسي في ساحة الأقصى، قبل أن يضع الإنكليز قانوناً يتعلق بدخول الأقصى وساحته، حيث تحولت تلك الروح وذلك النسيج وتلك التعددية الحية إلى بذور طائفية (من الجدير بالذكر هنا ادعاء الإنكليز بأن القانون كان لضمان حقوق الجميع!). ربما يبدو القانون أمراً ثانوياً، إلا أنه البذرة التي زُرعت وحوّلت القدس بالتدريج من مكان يشبه حديقة مليئة بأزهار جميلة، متعايشة معاً، إلى تعددية هي أشبه بالتعددية في حديقة حيوانات، حيث تعيش كل مجموعة في قفص بمعزل عن الأخرى. نتذكر قرارات عصبة الأمم، وهيئة الأمم، وننسى أموراً صغيرة تفعل فعل الإيدز في الإنسان والمجتمع مثل القانون المذكور.

تشمل الأهداف المذكورة في الصفحتين أيضاً إدراك «الأخطار التي تهدد مدينة القدس»، ولكنها تُهمل أكبر عامل مزّق النسيج المجتمعي فيها: المدارس (التي كانت بكاملها قبل 1908 أجنبية) والتي كانت تحوّل الطلبة إلى أفراد منعزلين بعضهم عن بعض، بحيث ينظر كل منهم إلى الآخرين كمنافسين لكسب رموز لا تعني شيئاً في الحياة، بل تعني كثيراً بالنسبة لنمط الاستهلاك في العيش. بالإضافة إلى ذلك، كانت تلك المدارس تحضّر الطلبة للعيش في بريطانيا وأمريكا وليس في القدس، ما دعا السكاكيني إلى إنشاء مدارس في القدس تجسد رؤيا ومنطقاً يختلفان عن المدارس الأجنبية. لنحمي القدس من الشرذمة المعرفية؛ الكتاب موبوء بالشرذمة. من الأفضل، في رأيي، أن لا يعرف الطالب شيئاً عن القدس، وتبقى صورتها في خياله متكاملة وملهمة، من أن يعرفها كمعلومات متراكمة متفرقة لا حياة فيها ولا روح.

عمّق الكتاب فيّ القناعة بأنه إذا أردنا سلب روح شيء، فما علينا إلا أن نمنهجهُ؛ أي، ندرِّسهُ من خلال منهاج وتدريب معلمين. كما عمّق غيابَ التوافق بين الفكر والقول والعمل، فكلمة «روح» في العنوان لم أحس بها في الكتاب.

القدس كواقع حيّ وكرؤيا وأفق حضاري

من أجمل ما قيل في العربية عبارة للنفري: «كلما اتسعت الرؤيا، ضاقت العبارة». القدس رؤيا تضيق فيها العبارات. يفتقر الكتاب -مثل أي كتاب مقرر- إلى رؤيا، وبالتالي هو مليء بلغوٍ ومعلومات لفظية وعبارات فضفاضة، مكوّمة بعضها فوق بعض.

الفكر الغربي فكر شرذمة وحدود (لو تأملنا، لوجدنا ذلك في كل شيء تقريباً)، بينما ما ميز الفكر العربي الإسلامي، قديماً وحديثاً، وجود أفق حضاري (ولو أنه مطموس حالياً بفعل هيمنة المؤسسات). فبغداد والقاهرة وقرطبة وأصفهان مثّلت جميعاً أفقاً حضارياً في الماضي. القاهرة زمن عبد الناصر كانت ذات أفق حضاري. كذلك بغداد لفترة. مكة وكربلاء يكوّنان أفقاً حضارياً. [ربما من المناسب اقتراح قراءة بعض الكتب القديمة التي تعكس آفاقاً حضارية مثل «البيان والتبيين» للجاحظ، و«محاضرات الأدباء ومحاورات الشعراء والبلغاء» لأبي القاسم الراغب الاصفهاني، و«تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار» لابن بطوطة]. **أرى أن هذا العام يمكن أن يمثل فرصة مناسبة جداً للعمل ضمن هذه الرؤيا: القدس كأفق حضاري.**

بعض الكتابات الحديثة مثل يوميات خليل السكاكيني وواصف جوهرية حول الحياة في القدس في نهاية الحكم العثماني وفترة الاحتلال البريطاني تمثل مادة ملهمة جداً، وذات معنى هائل في الوقت الحاضر على مستوى المنطقة، وبالتالي ذات أفق حضاري. هذه اليوميات مهملة في الكتاب. فمثلاً، وصف خليل السكاكيني للمدرسة التي أنشأها العام 1908 في القدس رداً على المدارس الأجنبية، وما ذكره واصف جوهرية بالنسبة للقوانين الأولى التي وضعها الإنكليز هي أمور توضح ما حدث (وما يجب أن يحدث الآن) على مستوى المنطقة حالياً.

جاء في يوميات «جوهرية»، مثلاً، أنه عندما دخل اللنبي القدس في شهر كانون الأول العام 1917 قال في أول خطبة له: «الآن انتهت الحروب الصليبية». من الصعب التفكير في عبارة أكثر سماً وتسميماً. ذكرت القانون المتعلق بدخول ساحة الأقصى التي كانت ساحة لكل الناس عبر 1400 سنة، لم يُسأل خلالها أحد عن دينه قبل دخول الأقصى وساحته... هذه القوانين ومحاولة تحويل «موسم النبي موسى» و«سبت النور» من احتفالات شعبية إلى احتفالات رسمية حكومية توضح إستراتيجية الانكليز وسياستهم في تمزيق المجتمع وتسميمه... هي أخطر بكثير من قرارات الأمم المتحدة التي لا يخفى شرها على أحد. كره الإنكليز ما لاحظوه من توافق وتناغم بين مختلف المذاهب والأديان في القدس، ورأوا أن ذلك سيعيق عملهم، فجاءت القوانين حرباً على هذا التوافق... هذه الأمور ذات جدوى لما يحصل الآن... **التاريخ ليس معلومات عن زمن مضى، وإنما تعميق لفهم الزمن الذي نعيش فيه.**

بعض الاقتراحات العملية

لدي أربعة اقتراحات محددة، كأمثلة: الأول يتعلق بكلمة انتداب. فالانتداب البريطاني كان عبارة عن تسليم أمانة (من قبل عصبة الأمم)، اسمها فلسطين، للإنكليز على أساس إعادتها لأصحابها يوم الرحيل. لم تُعد بريطانيا الأمانة حتى الآن. أرى أن تخصيص القدس كعاصمة ثقافية هي فرصة رائعة لملايين من الطلبة العرب، الذين يتوجه لهم الكتاب، أن يبعثوا باستمرار برسائل إلى طلبة بريطانيا يذكرونهم بالأمانة ويطالبون بها. بهذه الطريقة، نحوّل هذه الجريمة التاريخية إلى عامل يبعث الحيوية لدى الشباب، ويجدل في الوقت نفسه نسيجاً بينهم، بدلاً من التوجه إلى هيئة الأمم.

أما الاقتراح الثاني فهو البدء بوضع خارطة للقدس كما كانت العام 1948 (عام تحقيق الجريمة، التي نسميها خطأً بالنكبة) بكل بيوتها وعائلاتها وتواريخهم وأنسابهم . . . وبأدق التفاصيل.

والاقتراح الثالث هو أن نستغل الفرصة من خلال مناقشة الكتاب لإعادة النظر في أمر أعمق: احتكار التعليم الرسمي لقيم الطفل وقيمة التعلم. وفي الوقت نفسه، إبراز قول للإمام علي بأن «قيمة كل امرئ ما يحسنه»، وأيضاً إبراز حقيقة أن التعلم قدرة بيولوجية وليست مكتسبة، وأن التعلم متنوع قدر التنوع الموجود في المجتمع. إن إنهاء هيمنة المدرسة واحتكارها بالشكل السائد ليس مبرراً منذ أن نشأ . . . من أراد اتباع طريق المدارس، فليكن؛ من الضروري أن تكون له الحرية الكاملة في ذلك. أما أن يُفرض هذا الطريق على الجميع، الذي ينتهي في أن يلوم 80% من الطلبة أنفسهم، فهو أمر من الضروري مقاومته قبل أن يقضي علينا. من هنا، فإن المطالبة يجب أن تكون في توفير مرافق متعددة للتعلم ودعمها، وليس تحسين جودة التعليم (الكلمة المخدِّرة الجديدة في المجال التربوي!).

أما الاقتراح الرابع، فهو تجميع إنتاجات ملهمة عن القدس والحياة، فيها من إنتاج شباب وشابات قريبين في أعمارهم من أعمار الطلبة الذين سيقرأون الكتاب، وتوفيرها كموارد عن القدس من وجهة نظر الناس، وأيضاً تجميع حكايات نساء يُجسّدن توليد الحياة على الرغم من كل وسائل الدمار.

إبراهيم الفني: كتاب القدس صورة دون واقع

الكتاب لا يعالج القدس ولا الثقافة العربية، القدس مدينة الحزن والجمال، الله سبحانه وتعالى خلق للجمال عشر حصص، فنالت القدس تسعاً منها، ومنح للحزن عشر حصص فنالت القدس تسعاً منها.

في الواقع الثقافي، إذا طرحنا مدينة القدس فإن لها 63 اسماً ولها 21 طبقة حضارية، الذي كتب هذا الكتاب عن الحضارة الإسلامية، حتى أنه لم يعطِ الحضارة الإسلامية حقها كما يجب، ولو كان غرضه الدفاع عن القدس وعن الحضارة الإسلامية، لما سمى مدينة القدس بمدينة داوود، وهذا أخطر ما نواجهه الآن في حياتنا الثقافية أن تكون المفردات والمسميات والمعاني اللغوية التي نستعملها مقتبسة من الإسرائيليات، وهذا أخطر ما يكون أن نطبع مع إسرائيل في الجانب الثقافي، وإسرائيل حقيقة دولة بلا ثقافة، ولو حاربناها بالثقافة لهزمناها، نحن لا نستطيع أن نهزم إسرائيل عسكرياً، ولكن نستطيع أن نهزمها ثقافياً، وإسرائيل أصلاً ليس لها لغة، وليس هناك لغة عبرية، فعلى مدى السنوات القديمة لم نجد أي حرف عبري صدر إلا باللغة الآرامية، وإذا نظرنا إلى الحروف الأبجدية من الأول للآخر نجدها حروفاً آرامية، ولا توجد حروف عبرية، دعونا نتطلع إلى الأمور الآتية:

أولاً حياة السيد المسيح، إذا أخذنا حياة السيد المسيح كبرنامج ندافع فيه عن القدس، يمكن أن يقدم لنا أضواء ثقافية مهمة، حيث أن السيد المسيح مشى وزار ثلاثين موقعاً في القدس، تصوروا، هذه الرحلة السياحية كيف يمكن أن نطورها عربياً ونقدمها منهجاً عبر الثقافة العربية.

في يوم من الأيام، كان في مؤتمر الأردن (البحر الميت)، تحت عنوان الهاشمية، وكنت أنا أحد المشاركين في هذا المؤتمر وعلى مدار سنوات سابقة، وجدت في المؤتمر 12 ورقة إسرائيلية، وأنا اخترت ورقتي عن حياة السيد المسيح، اليهود اعترضوا على ورقتي وطلبوا مني سحبها، خافوا لأنهم زوروا التاريخ، لذلك خافوا من التحدث عن حياة المسيح.

في الكتاب نستطيع أن نطرح القدس عاصمة للثقافة العربية، كما طرحت تونس، وكما طرحت سوريا، كما يجب النظر إلى البرامج التي أنجزتها الدول المجاورة، الكتاب الذي أمامنا مطبّع، وأعطي مثلاً بسيطاً جداً، البرنامج التعليمي الذي نقدمه لطلابنا وندرسهم إياه، نجد أن الدنمرك اشترطت علينا، مقابل أن تصدر لنا هذه الكتب يجب أن تتلاءم مع البرنامج الإسرائيلي.

أيضاً هناك أخطاء كثيرة في الكتاب، فقد جمعت 685 خطأً في المنهاج الفلسطيني، تصوروا كم حجم الأخطاء في المنهاج الذي ندرسه لأطفالنا، إذا أردنا أن نطرح القدس كعاصمة للثقافة العربية علينا أن نختار ما هي المفردات التي يجب أن نتعامل معها.

كلمة «يورشالم» أو «نورماستك» أو «يورشلايم» كلها أسماء عربية، حيث أن «يور» تعني مكان و«شاليم» اسم إله. والمقدس هنا هو الأرض، عندما بنيت القدس بنيت على مقدس، نحن نقدس الأرض ولا نقدس الأماكن.

كيف عرف القدماء الحضارة: الأرض هي الأم والأب هو الجو، وأنت تنتمي إلى الأرض وهي الأم.

ماذا تعمل إسرائيل؟ تعمل على تغيير الثقافة العربية، الذين طبّعوا مع إسرائيل أهملوا ثقافتنا، فأصبح البرنامج الثقافي الإسرائيلي مأخوذاً من ثقافتنا، أين عاداتنا؟ أين تقاليدنا؟ أصبحت إسرائيلية! فأكلة الفلافل العربية صارت أكلة يهودية، ونحن لم نعترض أو نحتج ونشكر اللبنانيين الذين احتجوا ورفعوا قضية على اليهود الذين اعتبروا الحمص والفلافل أكله يهودية، فأي شعب حي يجب أن يدافع عن ذاته. فلماذا استكنَّا هذه الاستكانة؟ ولماذا أصبحنا غير مثقفين؟!

نحن علينا أن نعيد فكراً ثقافياً جديداً، نرسم من خلاله معلومات تاريخية، ومعلومات جغرافية صادقة، وهذا موجود في الكتب الفلسطينية وعند الكتاب الفلسطينيين، ولكن غُيّبوا، لأن النخبة السياسية الحالية احتكرت الثقافة والسياسة، تصوروا أن قرار 242 هو حدودنا، أين خرائطه؟ هل قرارات الأمم المتحدة حددت الدولة؟ هل أصبحت قضية فلسطين هي قضية الضفة الغربية أم أن القرار كان سياسياً؟ الإسرائيليون لديهم ثلاثة فرق تعمل، فريق مثقف يكتب الأبحاث ويضعها على الطاولة، يأتي السياسي يستفيد من هذه الأبحاث ويتعامل معها، ومن ثمة يترجمها المختصون إلى واقع في الميادين الاقتصادية والعسكرية والسياسية. أما نحن، فالسياسي هو المثقف وهو كل شيء!

الكتاب لم يقدم أي شيء عن القدس، قدم للقدس صورة دون واقع، أين الحياة؟ أين العادات؟ أين الأمة؟ تخيلوا أنه يصف باب الأسباط بأحد أبواب القدس دون ذكر اسمه. وبالتالي، إذا استخدمنا مفردات ثقافية وحضارية نستطيع أن نقول لإسرائيل هذه ثقافتنا، أنت تواجه برنامجاً حضارياً إسرائيلياً، بالمقابل علينا أن نقدم برنامجاً حضارياً آخر، ولا يمكن القول إننا نقتبس من الإسرائيليين من أجل أن نعمل برنامجاً حضارياً آخر.

كلمة يبوس معناها نوري وحرف (ي) تعني (ج)، عندما تقول يافا يعني جافا. يورشاليم يعني جورسليم، يرحو يعني جريكو أي أريحا، وهذا أساس التركيب المعنوي للجغرافيا.

وكلمة كنعان، هي الأرض وليست أمة، وتعني الأرض المنخفضة، والقبائل الكنعانية سكنت في الأرض المنخفضة، كلمة كنعاني تعني صانع الأرجوان، ولو نظرت إلى الألوان لوجدت أن اللون الأحمر هو اللون المميز، لأن تربة فلسطين هي حمراء، فعندما ننظر إلى النساء اللواتي كن يزخرفن ثوب العرس، كن يعملن على مدار سنة كاملة، وتضع النساء على هذا الثوب ألواناً تعبر عن حياة المرأة: هل هي سعيدة أم غير سعيدة؟ كيف نظرت المرأة إلى الحياة التي تعيشها؟ فمثلاً لو أخذت ثوباً فلسطينياً من مدينة يافا، تجد أنها قد نقشت عليه موج البحر الذي هو بجوارها.

انتقائية وغياب رؤى واضحة
غسان طوباسي: «مضمون الكتاب في سياق تاريخي، وبخاصة الفتح العثماني والعلاقات الإسلامية المسيحية»

هذا الكتاب لم يأتِ صدفة، ولا يتحمل مسؤولية ذلك واضعو هذا الكتاب فحسب، وللأسف هو نتاج سياسة عامة؛ سواء في المناهج أم المجتمع الفلسطيني، فهناك توجه عام لأسلمة المناهج، إذا نظرنا إلى اللغة العربية مثلاً نجد أن الجزء الأكبر منها منهج ديني أكثر منه منهج تربوي. هذا الكتاب استمرار للتفكير السائد في نهج وزارة التربية والتعليم، صناع القرار للأسف أصبحوا محافظين وتقليديين، يحاولون زرع هذه السياسة في عقول أبنائنا، والحاصل أن كثيرين في المجتمع أصبحوا يخافون من أي موضوع يتعلق بالدين. مثال بسيط، أنا قبل حوالي أسبوعين، أرسلت بعض ملاحظاتي حول هذا الكتاب إلى صحيفة محلية، وجاءني رد أننا لا نستطيع نشر هذه الملاحظات. الحاصل في المجتمع شيء خطير وأستطيع أن أقول إنه دق ناقوس الخطر لما يحصل في المناهج الفلسطينية، زد على ذلك أننا في القرن الواحد والعشرين وبدل ما نزيد حصص المواد العلمية والثقافية لنواكب منطق القرن، فإننا نعمل عكس ذلك.

لديَّ بعض الملاحظات حول الكتاب:

ترجمة القدس إلى القدس بالإنجليزية، شيء خطير، لأنني أعتقد أن القدس في الإنجليزية هي جورزلم بمعناها الشامل والسياسي الكبير. وفي مدريد طرح الإسرائيليون على الوفد المفاوض الفلسطيني، القدس هي قدسكم وقدسنا هي جورزلم، جورزلم هي القدس الشرقية والغربية، أنا أتحدث عندما تقول في اللغة العربية القدس هي القدس، وعندما تترجم إلى أي لغة ثانية هي جيروزلم، القدس التي يتحدث عنها الإسرائيليون ستكون أبو ديس؛ أي القدس التي يريدوننا أن نعرفها لأبنائنا وليس القدس التي هي أصلاً.

الكتاب أيضاً أحادي الجانب من الناحية الثقافية والدينية، ويتحدث عن جزء واحد من الهوية الفلسطينية، بمعنى أننا لا نستطيع الحديث عن التاريخ المصري وعن الهوية المصرية فقط وكأنها هوية إسلامية، فهي هوية قبطية إسلامية فرعونية، وهذه هي مكونات الحضارة المصرية، وكذلك الحال بالنسبة للحضارة الفلسطينية، هي حضارة آرامية كنعانية عربية نصرانية إسلامية.

هناك في الكتاب حديث يقول إن تاريخ القدس بدأ مع دخول عمر بن الخطاب، وهذا تاريخ مشوه، وهناك إهانة للنصارى عندما فسر في الكتاب انحناء النصارى لحظة دخول عمر بن الخطاب المدينة، إن الانحناء كلمة فيها إهانة، هم لم ينحنوا، لم تكن العلاقة بين المسلمين والمسيحيين على علاقة منحني ومنحى له. باختصار شديد، النصارى هم فئة فلسطينية أصيلة، وهم غير المسيحيين، النصارى هم الأمة التي آمنت بالعهد القديم والجديد، هم الأمة التي ذكرت في القرآن، وهم الأمة الوسط، هم الشعب الفلسطيني الذي حافظ على ديانته في فلسطين، وتعرضوا في القدس للاضطهاد من قبل اليهود، واعتبروا أنهم خوارج لأنهم آمنوا بالمسيح، ولاحقاً عند احتلال الرومان للمدينة لوحقوا وطردوا واعتبروا خوارج عن الديانة المسيحية، لأنهم لا يزالون يتبعون الإنجيل والتوراة. كما طرد اليهود معهم في تلك السنة، فاليهود التجأوا إلى بلاد الفرس والنصارى لجأوا إلى الجزيرة العربية، حافظوا على وجودهم، وكان لهم تأثير في الحضارات الإسلامية والفكر الإسلامي بوجودهم هناك. ومن بقي منهم في فلسطين، تعرض لاضطهاد كبير من الطرفين؛ المسيحيين الغربيين واليهود، ومن عاد منهم حافظ على هويته الفلسطينية الأرثوذوكسية الشرقية.

الموضوع الثاني: هو موضوع خطير جداً، وهو الحديث عن الفتح الإسلامي، وهو ما نسمعه كثيراً هذه الأيام، وبخاصة أن هناك حديثاً يهول مخاطر المد الشيعي، ولذلك يجب أن نلجأ إلى الأتراك السنة في

مواجهة هذا المد، ويتغنون بعوده الدولة العثمانية، ويتم الحديث عن فضائل الدولة العثمانية.

حاولت البحث في التاريخ عن فضائل الفتح العثماني في فلسطين خاصة، لم أستطع أن أجد أي فضائل لهذا التاريخ، لا في الصحة، ولا في التعليم، ولا في الإعمار، فهو استعمار وليس فتحاً.

في العام 1858، صدر قانون الأراضي، وقد أعاد تقسيم الأراضي على أساس جديد، تم إدخال تعديلات وإعادة توزيع المناطق إلى سناجق، وأصبحت القدس تضم يافا، وغزة، وبئر السبع، والخليل، وكان مركز الدولة العثمانية لتسجيل الأراضي في دمشق، ثم نقل إلى بيروت، وبطبيعة الحال كان الفقراء الفلاحون يواجهون صعوبة في الوصول إلى بيروت، وكانت تباع أراضيهم إلى العائلات الغنية بأسعار رخيصة جداً مثل عائلة سرسق.

في العام 1868، عدل قانون وسمح للأجانب بشراء الأراضي، وبدأت المؤسسات بشراء الأراضي في فلسطين، فعلى سبيل المثال، مستوطنة «بتاح تكفا»، لم تكن لتتم لولا هذا القانون.

فالسلاطين العثمانيون كانوا حالة تفاوض دائم مع ثيودور هرتزل لإنقاذ الدولة العثمانية، وطلب تقديم معونة مالية لحماية انهيار الوضع الاقتصادي للسلطة العثمانية، وقد سمح لأول هجرة يهودية سنة 1882، وأهل القدس هم فقط الذين رفعوا عريضة للصدر الأعظم يطالبونه بمنع هجرة اليهود الروس.

الدولة العثمانية لم تكن على نقيض مع الاستعمار البريطاني، باختصار كما أن هناك استعماراً بريطانياً كان هناك استعمار عثماني تركي.

قضية أخيرة، في الكتاب طلب من الطلاب عمل تقرير عن هربرت صموئيل، ومذكور بشكل واضح، ولم يطلب منهم تقرير عن قائد فلسطيني مثل عبد القادر الحسيني، وإسعاف النشاشيبي، وخليل السكاكيني، أو إدوارد سعيد.

أنا أعتقد أن هذا الكتاب لا يصلح كمنهاج، وهناك ضرورة لرفع الصوت عالياً لمنع المزيد من هذه الكتب.

سمير عوض: القدس كمدينة حية

الموضوع الذي سأتحدث عنه، هو القدس كمدينة حية، كمدينة تتنفس وتتفاعل مع البيئة التي حولها، وكمدينة يخنقها الاستيطان ومحاولات التهويد المستمرة، ولولا أن هناك عقلية وممارسة للمقاومة من قبل السكان الفلسطينيين لماتت مدينة القدس منذ زمن بعيد.

أود الحديث هنا عن مقاومة المدينة ككائن في وجه محاولة تزوير هويتها وروحها. أشعر أن هذا الكتاب يتحدث عن مدينة القدس كجماد بلا حياة، وأنا فلسطيني أشعر أن هذا عكس ما نريده وعكس ما نوافق عليه، وهذا ما يريده الاحتلال ورئيس بلدية القدس السابق أولمرت.

أنا شخصياً تعلمت عن القدس من زوجتي هدى العموري، فهي من مواليد مدينة القدس. الإنسان لا يتعلم فقط من الكتب والأعمدة والمباني التاريخية، تعلمت كيف تكون مدينة القدس حية بأهلها، وبأسواقها، وأناسها، وحاراتها، التي تنبض بالحياة، وأزمان القدس ومواعيدها متداخلة كقطعة فسيفساء. ففي رمضان مثلاً، نتعرف على المهرجانات والاحتفالات التي تملأ الشوارع والساحات، وهذه أصبحت جزءاً من التقاليد، أنا هنا لا أعني بالتقاليد الأشياء القديمة، أنا أقصد بالتقاليد حياة الناس، كيف ينزلون إلى السوق، ويحتفلون بالمناسبات، يتحدثون مثلاً عن الأشياء التي تكون غالية في شارع صلاح الدين، ولكنها أرخص في البلدة القديمة. لا أتحدث هنا عن المسجد الأقصى وقبة الصخرة وكنيسة القيامة، أتحدث عن المشي في السوق، من باب العمود وباب خان الزيت إلى الحرم أو إلى حارة النصارى، وأسواق «السنتوارية» والتحف والعملات القديمة.

عند مطالعتي للكتاب الذي يتحدث عن القدس وجدت أنّ الكتاب يتحدث عن كل الأشياء الموجودة في المدينة عدا الناس! يوجد 200 ألف ساكن في المدينة (سامحوني إن أخطأت) لم يتطرق الكتاب إلى هؤلاء الناس!

لم يتحدث الكتاب عن هؤلاء الناس ولا عن أماكن وجودهم، ماذا يعملون؟ وكيف هي حياتهم؟ مع أنهم الشعب المستهدف. إسرائيل لا تستهدف الأماكن الدينية بشكل أساسي، إسرائيل تستهدف الشعب والناس والساكنين في القدس. المقاومة يجب أن ترتكز على هؤلاء المواطنين الذين يسكنون المدينة ويمثلون الجانب الحي والمُقاوم للتهويد والسياسات العنصرية. فعندما تتحدث عن الهجمة الإمبريالية والاستعمار وكل هذه المواضيع، وإذا لم يتوفر الاستعداد للمقاومة لكل المعارك على الهويات وعلى المناطق المصادرة وعلى الحصار وعلى إعدام البيوت، باعتقادي لا يمكن أن نحقق أهدافنا المنشودة في التحرر والاستقلال.

الكتاب لم يتطرق إلى الجانب الحي في القدس، وأعتقد أن الخطأ جاء من الناس الذين عملوا هذا الكتاب، حتى أن وزارة التربية والتعليم لا ترى ولا تتعامل مع القدس كمدينة حيّة، بل يشاهدون مدينة القدس من خلال مبنى مملوكي أو عثماني أو أموي. إذاً، واضعو الكتاب ركّزوا على الجانب الرمزي والمثولوجي. المهم أن هناك فلسطينيين يعيشون حياة في مدينة القدس، متنوعين وأصولهم مختلفة. المباني مهمة تعكس هوية أصحابها، أنا أرى القدس العربية بالسكان الفلسطينيين الذين تحملوا وقاوموا الطرد والإخلاء من قبل بلدية القدس وحكومة إسرائيل.

وأنا أختلف مع الناس الذين يتحدثون أننا منتصرون. الصمود شيء، والانتصار شيء آخر، أنا برأيي أقصى ما يمكن عمله في القدس هو الصمود، وهذا ما نطمح له، نحن لسنا في معركة نحارب بها ونطمح للنصر، نحن في فلسطين نطمح للصمود.

وأنا في نظري كلما فرضت غرامات باهظة، وكلما صار سحب هويات وتضييق خناق، فإن السكان هم المستهدفون وليس المباني التاريخية

والمعنى الرمزي للقدس. يجب مساعدة سُكان مدينة القدس على الصمود في وجه الهجمة الاستيطانية اليهودية الهادفة إلى تغيير تاريخ المدينة العربية الفلسطينية ومستقبلها. هذا الكتاب يجيب عن القيم الرمزية، ولكنه لا يجيب عن الأشياء ذات القيمة الكبيرة لدي أنا، أولادي الصغار مشوا في شوارع القدس القديمة مثلاً، وركضوا في ساحة الأقصى، ونزلوا إلى المصلى المرواني، وبالنسبة لهم أصبحت القدس جزءاً من حياتهم.

المهم أن نعمل أشياء ونشاطات لتصبح القدس جزءاً من هوية الناس، وتكون القدس متفاعلة مع الفلسطينيين، وأنا أشعر أن الحديث اليهودي عن القدس حديث عنصري إقصائي عندما يقولون أن القدس لهم وحدهم وليس لأحد حق فيها، فالتاريخ اليهودي لمدينة القدس حقيقي ولكنه غير ممتد. القدس لها تاريخ أكبر بكثير من تاريخها اليهودي، فلها تاريخ كنعاني ويوناني وروماني وآرامي وبيزنطي وإسلامي، سواء أكان الأخير أموياً أم مملوكياً أم عثمانياً.

حضارات متعددة ومتنوعة وشعوب مختلفة عاشت في القدس وساهمت في هويتها، ولذلك لا يوجد في القدس تفرقة طائفية ولا عنصرية. والاستعمار هو الذي خلق هذه التفرقة. سكان مدينة القدس يجب أن ننظر إليهم بنظرة الاعتزاز والإعجاب، وهم الضمانة لمستقبل القدس العربية الفلسطينية.

إعادة النظر في الكتاب
خليل التفكجي: «الجغرافيا السياسية لمدينة القدس وانعكاسها في الكتاب»

حقيقة عندما استلمت كتاب القدس وقع في يدي كتاب إسرائيلي يتحدث عن القدس، ويحمل توقيع أولمرت، يتحدث عن مكانة القدس وعن التاريخ والجغرافيا والعمارة الإسلامية واليهودية والمسيحية، ويشتمل على الصراع السياسي في تلك الفترة بين العائلات التي كانت موجودة في مدينة القدس، حتى يصل إلى الاتفاقيات الأخيرة بالنسبة للمدينة، ومع تحفظنا على فكرة المقارنة، إلا أن ذلك لا يمنع من الاعتراف بشمولية مجالات التناول في الكتاب الإسرائيلي وتعددها، وهذا ما لم يشتمل عليه الكتاب المنهاجي الفلسطيني، مع أننا في هذا الموضوع في غاية الاحتياج للتعمق والشمولية والمنهجية.

وفي هذا السياق، أرى أن الكتاب الصادر عن وزارة التربية والتعليم قد تحدث عن أن القدس مهبط الديانات السماوية الثلاث، ولكنه في الحقيقة ركز على ديانة واحدة وهي الإسلام، وتركز بشكل أساسي على قبة الصخرة والمسجد الأقصى، وهذا ما نعاني منه الآن في وسائل الإعلام العالمية، كأن القدس هي فقط المسجد الأقصى وقبة الصخرة، دون النظر إلى السكان الذين يعيشون في هذا المكان بثقافتهم وحضارتهم وحياتهم.

ومن جهة أخرى، لم يكن الكتاب متوازياً في عرض التعددية الثقافية لمدينة القدس، وهذا مستجد في حياتنا الفلسطينية، ففي فترات سابقة لم يكن هنالك تمييز على أساس الدين، بحيث كنا كمقدسيين يحضر المسلمون أعياد الفصح وأعياد المسيحيين وفي الوقت نفسه الأعياد الإسلامية يحضرها المسيحيون، هذا شكل لدينا ثقافة التنوع وتقبل الآخر.

الشيء الآخر في الكتاب، التركيز على القدس، فأنا دائماً في محاضراتي أسأل السؤال الأول، ماذا تعني القدس، هل هي القدس الشريف؟ القدس الشرقية؟ القدس الغربية؟ وهذا السؤال غير واضح حتى للسياسيين الفلسطينيين الذين عندما يذكرون القدس لا يفهمون معناها.

القدس الشريف محددة في الفترة العثمانية بالجسم الموجود داخل الأسوار، بحيث أن اليهود عندما أنشأوا أول مستوطنة إسرائيلية خارج حدود الأسوار، جاء البريطانيون ووضعوا الحدود، ثم جاء قرار التقسيم 181، ثم جاءت بلدية القدس، ثم الحدود الأردنية، ثم عملية تقسيم القدس الشرقية والغربية.

الأمر الآخر عدم وضوح جغرافية القدس في الكتاب، فالمشهد الجغرافي لمدينة القدس له مواصفات خاصة، فموقعها كان منذ القدم يجمع بين شيئين، الموقع الدفاعي والموقع المكاني. القدس على هضبة، محاطة بسلسلة جبال؛ جبل الزيتون، وجبل المشارف، وجبل المكبر من الناحية الجنوبية، وهو كموقع غير مميز من النواحي الاقتصادية أو الإستراتيجية، وأهميته الأولى تنبع من موقع القدس ومكانتها الدينية، فالماء مثلاً كان في القديم يجلب للقدس عبر قنوات رومانية من جبل الخليل، ثم من راس العين في مرحلة أخرى، وفي الفترة الأردنية من عين سينيا. وما يمكنني أن أقوله أن الأساس في بناء مدينة القدس في هذا الموقع هو المكانة الدينية، وأهمية القدس تكمن من كونها أولى القبلتين وثالث الحرمين الشريفين، ومن وجود كنيسة يحج إليها من جميع أنحاء العالم.

الأمر الأخير في الموضوع، أن في القدس شخصيات تاريخية ومعاصرة ومراكز ثقافية تم إغفالها، فحتى الرحالة الذين قدموا إلى هذه المنقطة كتبوا عن الحياة اليومية، ومن المعروف أن لأهل القدس نمطاً خاصاً ولجهة خاصة لا يعلمها الكل، وهذا غير واضح في هذا الكتاب.

الصور والأخطاء: في إحدى الصور في صفحة 84، صورة تتضمن أحد أبواب القدس، ومن ينظر إليه يقول إن هذا باب الخليل، ولكنه في الواقع هو نفق إسرائيلي، كذلك عندما تحمل إحدى الصور اسم (أحد أبواب القدس) وغير معروف للطالب، ما هو هذا الباب؟ (وهو بالمناسبة باب الأسباط).

سردية ضعيفة ولغة إنشائية بلا مخيلة
نجوان درويش: عن محتويات الكتاب والإخراج البصري

أشياء مهمة للغاية قيلت في مداخلات هذه الندوة، وهذه بعض الملاحظات الأخرى على مضمون هذا الكتاب وإخراجه الذي لا يقل بؤساً عن مضمونه.

بخصوص ما احتواه الكتاب من «قصائد»، فهي ليست من القصائد

الجيدة أو الصالحة في الإطار التربوي إذا استثنينا أربعة أبيات فقط لعمر أبو ريشة وردت فيه. فهذا «العمل» يستحق جائزة لأسوأ كتاب عن القدس، ومن الواضح أن الذين كلفوا بإعداده لم يكلفوا أنفسهم عناء البحث واكتفوا برديء الشعر، وأهملوا بقية الأشكال الكتابية الأخرى كالمسرح، والرواية، والقصة، والأجناس الأخرى من التعبير الكتابي، ناهيك عن إهمال الفنون البصرية إهمالاً فادحاً. تم إهمال جميع هذه الأشكال لصالح نمط رديء من الشعر؛ سواء من التراث أم حتى ما حسبوه شعراً معاصراً. نماذج ميتة، والقدس ميتة معه، والإنشاء الذي يبدأ منذ مقدمة الكتاب مرعب بالفعل.

في مقدمة الكتاب تقول الوزيرة: «أولاً نثمّن عالياً موقف قيادات الدولة العربية والإسلامية ومواقف الإخوة وزراء التربية والتعليم في الدول العربية والإسلامية». لماذا نثمن عالياً؟! وأية مواقف؟ وعن ماذا نتحدث؟ كأن القدس في أحسن أحوالها، وفي النهاية توقيع «أختكم ليس العلمي». أنا اعتقد أن المسؤولين عن هذا الكتاب يجب أن يتحملوا مسؤوليتهم تجاه هذا الكتاب، ويجب مساءلة من أعدوا الكتاب بهذه الصيغة. كتب المناهج عالمياً نعرف من ألّفها، أما هذا الكتاب فهو دون مؤلف مثل النشرات التي يتخلى عنها أصحابها. وأرى أنم هذا استخفاف يعكس الاستخفاف العام في التعامل مع قضية القدس، ولاسيما موضوع القدس عاصمة الثقافة العربية 2009، والخفة التي يتم التعامل بها معه. هذا الكتاب يعكس العمل الفلسطيني والعمل العربي للقدس حالياً، للأسف هذا الكتاب ليس استثناء، والوضع العام ليس أفضل من ذلك!

من جهة أخرى، ثمة تخبّط في الرؤيا السياسية للكتاب، فكل الحديث يجري عن «المحافظة على مدينة القدس» و «استنكار تهويدها» . . . ولا نفهم هنا بأي معنى تُفهم كلمة «المحافظة» عند الحديث عن مدينة محتلة؟ وما معنى «الاستنكار» الذي يريد الكتاب تلقينه للطلاب . . . هل نطمح إلى تعليم الأجيال القادمة مواصلة طقوس الاستنكار العربية؟!

الكتاب يقدّم السردية الإسلامية في أضعف صورها، ولا يصل للمعنى العميق الجذري للسردية الإسلامية، وإنما يذهب نحو الإنشاء القائم على تعويض الواقع وغياب الفعل، بلغة إنشائية بلا مخيلة. في المقابل الكتاب لا يتطرق بتاتاً لحياة السيد المسيح في القدس، وبشكل عام هناك تغييب للمكوّن المسيحي في الثقافة العربية المتعلقة بالقدس، وهذا خطأ جسيم برأينا.

فيما يتعلق بالإخراج البصري، فالصور الفوتوغرافية التي وردت في الكتاب لا توجد إشارة لحقوق هذه الصور ومن أين أتت، وفيما يبدو فإن معظمها منقول من شبكة الإنترنت. على سبيل المثال، لا توجد معلومات دقيقة عن الصور المرفقة، أي ما يسمى شرح الصورة. مثلاً هناك صورة لـ «باب الخليل» كتب تحتها «أحد أبواب القدس»، والأغلب أن معدي الكتاب لم يعرفوا أي باب هذا. وحين وضعوا صورة لـ «باب العمود» -أشهر أبواب القدس- ولأنهم عرفوه وضعوا تحت صورته اسمه، ولكن الأبواب الأخرى التي تحتاج إلى تعريف، اكتفوا بوضع «أحد أبواب القدس» بدل تسمية الباب.

سليمان منصور: الإخراج الفني للكتاب

أنا أتحدث عن عناصر مهمة في اللوحة الموجودة على الغلاف، وهي الأرجل التي تؤكد على الثبات والقوة ولكن الصورة لم تظهر القدمين في الغلاف، كما أننا لم نعرف من التقط صورة قبة الصخرة والمسجد الأقصى ولمن اللوحة. أيضاً اللون العام للكتاب يشير إلى أن الكاتب ذو لون واحد، وفكر معين.

أيضاً الصور الموجودة داخل الكتاب تشير إلى عدم الاهتمام بالإنسان الفلسطيني الموجود في مدينة القدس، بحيث أنه لا يوجد صور يظهر فيها ناس بشكل واضح، وبعض الصور التي يظهر بها أشخاص يبدون صغار الحجم وغير واضحين، ويبدون في بعض الصور أنهم يهود وسياح أكثر منهم عرب من سكان القدس.

الكتاب موجه للأطفال في سن (ست سنوات إلى أربع عشرة سنة) لا يوجد فيه أي شيء يمكن أن يشد الطفل مثل الرسم والألوان، مع أن الموضوع غني جداً بهذه الأمور، بحيث أنهم لو توجهوا إلى فنانين فلسطينيين وطلبوا منهم أن يرسموا عن موضوع القدس، لقدم الجميع تجاربه وخبراته، وأصبح الكتاب مستساغاً وعالقاً في ذهن الأطفال، لكن الكتاب جاف من جانب الصور والإخراج الفني، ويبدو أنه لم تصبه يد مصمم غرافيكي أو فنان.

هناك عدد كبير من الأخطاء في الكتاب تحدث عنها من سبقني، ولكن سأتحدث عن أخطاء تهمني كفنان، وبصفتي مهتم بالصناعات الحرفية فقد ورد في صفحة (30) صور لصناعات خشبية من القدس، وهذه النماذج لم أشاهدها أبداً في القدس، ولا حتى خارج القدس، أيضاً هناك صورة لساعة خزفية مكتوب عليها إنها من خشب، وهذا خطأ يستطيع حتى الطفل أن يدركه.

من ناحية الإخراج الفني، فهو سيء جداً، وأعتقد أن الكتاب لم يمر في عملية إخراج فني على الإطلاق، وكذلك شعار القدس عاصمة الثقافة العربية، يظهر على أغلب الصفحات كخلفية ضبابية ولم يظهر في أي مكان في الكتاب بشكل واضح.

انتقاء الخط سيئ جداً في الصفحات الأربع الأولى، ويبدو كخط يد، ولكنه بالفعل من إنتاج الحاسوب، وقد حاولت أن أقرأ هذه المقدمة ولكن لصعوبة قراءتها تخطيتها إلى صفحات أخرى، فهل يمكن للمعلمين أن يقرأوها ويستفيدوا منها.

صيغة الكتابة في كلمة الوزيرة موجهة إلى الزعماء والقادة والملوك العرب، وليس لأهالي القدس والمعلمين والأطفال الذين سيقرأون الكتاب.

الهامش

* باحث في تاريخ فلسطين الحديث في مؤسسة الدراسات المقدسية، وأستاذ التاريخ في جامعة برادلي في الولايات المتحدة الأمريكية.